رحلة الخلافة العباسية (١)

العباسيون الأقوياء

رحلة العباسيين منذ بداية الثورة وحتى نهاية عصرهم الذهبي

محمد إلهامي

جميع الحقوق محفوظة

بطاقة الفهرسة
فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب

إلهامي ، محمد
العباسيون الأقوياء: رحلة العباسيين منذ بداية الثورة وحتى نهاية عصرهم الذهبي / تأليف/محمد إلهامي . ط١. - القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٣
(٦٤٨ ص)، ٢٤ سم (رحلة الخلافة العباسية ج١) تدمك: ٩-٨٩٣-٤٤١ - ٩٧٧ -٩٧٨
١ - العباسيون
أ. العنوان ٩٥٣,٠٨٦

رقم الإيداع: ٢٠١٣/٢١٦٩١م

مركز السلام للتجهيز الفني
عبد الحميد عمر
٠١٠٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة
الإدارة: ١٠ ش أحمد عمارة بجوار حديقة الفسطاط
ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١١٢١٢٠٢٤٧٢
مكتبة اقرأ – الأزهر: ش ابن البيطار خلف الجامع الأزهر
ت: ٢٥١٤٢١٦٧ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٧
مكتبة اقرأ – جامعة القاهرة: ٤ ش حلمى بين السرايات مطلع كوبرى ثروت
ت: ٣٧٦٠٤٨٩٦ محمول: ٠١١١٠٥٠٣٣٦٨
www.Iqraakotob.com
E-mail:iqraakotob@yahoo.com

إهداء

إلى الأخ الكريم

أ. قاسم عبد الله

مدير عام مؤسسة اقرأ

فلقد دعم هذا المشروع منذ فكرته
وحتى خروجه إلى النور
عسى الله أن يبارك فيه وفي عمله..
وأن يجعله من مفاتيح الخير دائمًا.

المؤلفان

رحلة الخلافة العباسية

(١)

العباسيون الأقوياء

رحلة العباسيين منذ بداية الثورة حتى نهاية عصرهم الذهبي

(٢)

العباسيون الضعفاء

الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية

(٣)

آخر أيام العباسيين

الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد

مقدمـــــة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله محمد وعلى آله وصحبه أجمعين..

ليس عسيرا أن يلاحظ المهتمون بأمر هذه الأمة ابتعادها عن تاريخها بفعل القرون التي مرت عليها من التخلف والتراجع ثم الاستعمار والاحتلال ثم الاستبداد والطغيان، حتى انقطع ما كان موصولا وما حقه أن يتصل، وهو اتصال الأمة بتاريخها وأسلافها وهو خير التاريخ وخير الأسلاف، وزُرِع لهم قسرا مفاهيم وتاريخ وأفكار غريبة عنهم فلا هي من أرضهم ولا من روحهم ولا من ثقافتهم، ثم أريد لها أن تنبت في تلك النفوس والعقول حتى تجعلهم أتباعا يفكرون بعقول أعدائهم ثم يمضون على طريقتهم وسنتهم، وهو ما لم تقبله الأمة وظلت في مقاومته ورفضه حتى تلك اللحظة.

وفي ظل هذه العقود قام الكثيرون بجهد عظيم في التنقيب عن التاريخ المدفون واستخراج كنوزه وذخائره، وبُذِلت مجهودات دؤوبة في فحص هذا التاريخ ودراسته، إلا أن كثيرا من هذه المجهودات تعطلت بفعل الاستعمار ثم أذنابه من الاستبداد، ففضلا عن التخريب العام الذي يصنعانه في الأمم إلا أن أثرهما في البحث العلمي يكون أشد وضوحا وتأثيرا، ومن فروع البحث العلمي يأتي البحث التاريخي.

لقد كان الإسلام والإسلاميون هم أعدى أعداء الاستعمار ثم الاستبداد، ولم يدخر أحدهما وسعا في استبعاد الإسلاميين والتنكيل بهم في سائر المجالات فأنتج هذا ظاهرة خطيرة ما زالت الأمة تعاني من آثارها.. تلك هي: ندرة المؤرخين الإسلاميين المحترفين!

لقد كانت الجامعات والمناصب والمراكز البحثية والإصدارات مفتوحة للقوميين واليساريين، فيما كانت مغلقة تماما أمام الإسلاميين الذين لم يكونوا يطمعون في أكثر من الأمان الشخصي على أنفسهم وأعراضهم وبيوتهم، فكانت غالبية الدراسات التاريخية في القرن العشرين –وهو القرن الذي بدأ فيه المسلمون يكتبون تاريخهم بأنفسهم وفقا لمقاييس ومعايير ومناهج البحث الحديث– صادرة عن قوميين أو يساريين أو بالحد الأدنى ممن ليس

لهم اتجاه أو رؤية تخيف المستبد!

وعلى الجانب الآخر كانت المحاولات الإسلامية أقرب إلى محاولات الهواة والدعاة منها إلى مجهود المحترفين والباحثين.. فخرجت كثير من الكتابات العاطفية التي استفزتها الدوافع النبيلة في الذب عن التاريخ الإسلامي وعن السلف الصالح أمام محاولات السحق والهجوم العنيف المستمر، والذي وصل حد التشكيك في شخصيات بمقام الصحابة وأمهات المؤمنين والخلفاء الراشدين، ثم تجاوز هذا إلى مقام النبي نفسه!

إن قليلا من المؤرخين القوميين كانت لديهم القدرة على التحرر من ميراث المستشرقين وشبهاتهم وقراءتهم للتاريخ الإسلامي، وبرغم أننا نميل إلى تثمين المجهود العظيم الذي قام به المستشرقون في بعث وفحص وتحقيق التاريخ الإسلامي إلا أن الحقيقة الراسخة أنهم في كثير من الأحوال فشلوا في قراءته وتحليله لاختلاف اللغة والروح والثقافة[1]، ومن ثَمَّ صار التاريخ مكتوبا بأيدي بني جلدتنا وممن ينطقون بألسنتنا ولكنه غريب عن روحنا وثقافتنا ومثير للأزمات والمشكلات والتساؤلات حتى ليقول القائل: هل هذا تاريخ خير أمة أخرجت للناس؟ هل تريدون أن نعود إلى مثل هذه العصور؟!

ولئن كان هذا يقال حين نقرأ نتاج قوم تابعوا المستشرقين وفشلوا في التحرر من سلطانهم، فإن أضعافه سيقال حين نقرأ نتاج قوم قصدوا عن عمد تشويه التاريخ نصرة لمذاهبهم الماركسية أو الليبرالية، تلك التي تعتقد أن التقدم هو الجديد وأن الماضي دائما هو عنوان التخلف والرجعية والجمود!

وهكذا طفق جميع من له مصلحة في الاغتراف من النهر وإعادة إنتاجه بمزيد من التزوير والتشويه حتى صرنا نقرأ تاريخنا وكأن أمتنا هي صاحبة أسوأ ميراث حضاري بين الأمم!

في هذا الواقع استيقظ المسلمون ليعيدوا النظر والتحقيق في تاريخهم ليتبينوا مواقع أقدامهم وينظروا حظ هذه الشبهات من الحقيقة، أو ليدفعوا عن أمتهم سائر ما أصبحت تُرمى به من سهام بل وقنابل، وكانت سيرة النبي ﷺ ثم سيرة الخلفاء الراشدين هما أول

(١) لهذا تجد أفضل دراسات المستشرقين وأقلها في الأخطاء هي ما كانت علمية بحتة؛ كالبحث في تاريخ العلوم أو تاريخ البلدان أو تاريخ النظم والمؤسسات، أو ما سوى ذلك من بحوث في النقود والملابس وطرق التجارة.. بينما أكثرها أخطاء هي ما تناول الفكر والأدب والفلسفة والتفسير وما إلى ذلك.

المجالات التي سعى فيها الباحثون والدارسون، والذين وجدوا في تراثهم عِلْمًا هائلا بديعا هو: علم الجرح والتعديل، فنهلوا من ذلك الميراث وحققوا ذلك التاريخ حتى استقام الأمر من بعد اعوجاج، ولا يبلغ الأمر تمامه إلا حين تتخلص الأمة من الاستبداد فتبدأ نهضتها الحقيقية المؤسسة على أكتاف مخلصين تدعمهم الدولة وتوفر لهم إمكاناتها من بعد ما بلغوا أقصى استطاعتهم في المجهودات الفردية.

لا تزال السيرة النبوية وتاريخ الخلافة الراشدة يحتاجان إلى المزيد من العمل والجهد والتحقيق، ولكن نستطيع القول بأن الثغرة في هذه المناطق قد سُدَّت إلى حد كبير بما صدر من بحوث ومؤلفات ورسائل علمية تحقق تاريخ هذه الفترة بمقاييس علمية وروح وعقلية إسلامية!

لكن ما زال باقي التاريخ الإسلامي منذ الدولة الأموية يعاني من الضعف في كتابته بالروح والعقلية الإسلامية، بل ما زالت ثمة تواريخ مجهولة تحتاج إلى الاكتشاف والبعث أصلا مثل تاريخ المسلمين في أنحاء إفريقيا وآسيا، وهذا يضع على الباحثين الإسلاميين عبئا ثقيلا ومهمة كبرى ستحتاج إلى مجهودات عظيمة ومضنية تُنفق فيها الأعمار!

والمقصود هو الإشارة إلى أن بقية التاريخ الإسلامي من بعد عصر الخلافة الراشدة تندر فيه الدراسات والبحوث الجادة التجديدية التي تقرأه بعقلية وروح إسلامية، وغالب ما يصدر في هذا السبيل تغلب عليه العاطفية والسطحية والمباشرة.

وهذه العاطفية في تناول التاريخ الإسلامي يغلب عليها الدفاع والتبرير والتماس الأعذار، مما يجعلها تنتج مادة رخوة لا تقدم دروسا مستفادة حقيقية بقدر ما تقدم حماسة وعاطفة شعورية، وهي بهذا تدخل في دائرة تزوير التاريخ وإن بحسن نية! فالتاريخ جوهره العبرة والعظة، وهدفه تكوين البصيرة في سنن الله ليكون المرء واعيا بماضيه وحاضره، عارفا بالطريق الصحيح في مستقبله.

وحيث صار التاريخ مادة رخوة تغلب عليها العاطفية ولا يضبطها ميزان البحث العلمي المتجرد فقد ظهرت فعلا كتابات تاريخية إسلامية لا تحقق الحد الأدنى من الانضباط والأمانة العلمية، فقد ظهرت فعلا بعض الكتابات التاريخية الإسلامية التى لا تحقق الحد الأدنى من الانضباط والأمانة العلمية، بل هى مكتوبة لنصرة الأفكار التي يعتنقها الكاتب

الإسلامى، أيًا كان الفصيل الذى ينتمى إليه، وبعض هذه الكتابات ذات أثر خطير في تشويه شخصيات وأحقاب تاريخية لا تنسجم مع أفكار الكاتب، وهي تساهم في صنع أزمات فكرية حقيقية، فبدلا من أن يكون التاريخ هاديا إذا به يتحول إلى سلاح يُساء استخدامه لتدمير الوعي لحساب الأفكار الصغيرة التي اعتنقتها عقول فقيرة افتقدت رحابة التأمل والتفكر والتعمق مع ما افتقدته من أمانة البحث العلمي.

وفي هذا المناخ يكون الواجب المتحتم على الباحثين في مجال التاريخ الإسلامي أن يستعينوا بالضبط العلمي المجرد والأمانة العلمية قبل كل شيء، ثم بالروح الإسلامية التي تنير مسالك البحث، وتستطيع –إذا صاحبت الباحث– أن تيسر له فهم هذه المجتمعات التي يسودها الإسلام فتنفعل له وبه وتتصرف وفقا له.

فهاتان مشكلتان: تاريخ كتب بغير الروح الإسلامية، وتاريخ إسلامي عاطفي..

وتبقى المشكلة الثالثة..

وهي مشكلة تقريب هذا التاريخ إلى عموم الأمة، بحيث يستطيع القارئ غير المتخصص أن يتعرف على تاريخه دون أن يكون ملزما بالغرق في الروايات وتفاصيلها وخلافات الرواة أو تحقيقات المصادر القديمة والحديثة –وهو الأمر المحبب إلى الباحثين، فكل باحث يحب استعراض عمله وعرض جهده في البحث والتنقيب– كما أنه في حاجة لمعرفة تاريخ يحقق الحد الأدنى من العمق والتفصيل بغير عبور سريع على المحطات التاريخية، وهو ما لا يحقق الحد الأدنى من شعور الشبع والفهم للحادثة التاريخية.

إنه في حاجة إلى ما سماه العلامة ابن رشد «بداية المجتهد، ونهاية المقتصد»..

ولهذا فإن أول ما توخينا ضبطه في هذا الكتاب هو أمانة النقل والتزام منهج البحث العلمي، والتزام المدرسة العلمية الإسلامية التي نشأنا في ظلالها فتخلصنا بها من تفسير قومي متعسف أو تفسير تطوري حتمي متكلف أو تفسير غربي غريب وعاجز عن فهمنا بقواعد فلاسفته الذين لم يقرأوا في تاريخنا أصلا!

كذلك توخينا ألا يكون البحث عاطفيا يسلك التبرير والدفاع عن بشر لا حرج أن يخطئوا وأن نهاجمهم، فلا هم الإسلام ولا الإسلام هم، بل إننا ما لم نبصر تاريخهم كما هو لما

استفدنا منه، لذا عرضنا الشخصيات بما فيها من مزايا وعيوب، ولم نشغل أنفسنا كثيرا بحل إشكاليات الشخصيات، فالبشر ليسوا كائنات سطحية بل هم أعمق من مجرد النظرة الخارجية، تختلج في نفوسهم الآمال والطموحات والمخاوف وتتعايش داخلهم المزايا والعيوب، والإنسان يتغير بين اليوم والليلة، وهو يتغير قبل السلطة وبعدها، ويتغير في بيته عما هو خارجه.. لقد فضلنا أن نعرض الشخصيات كما هي دون الانشغال بإصدار حكم نهائي عليها.. فهذا فضلا عن كونه يتجاوز هدف الكتاب، فإن الصواب فيه بعيد! على أن هذا لا يعني أننا تجنبنا هذا تماما، بل حكمنا بما تبين لنا أحيانا ونقلنا آراء المؤرخين القدامي والمحدثين ووافقناهم أحيانا وخالفناهم أحيانا أخرى.. والله يحكم بين عباده فيما كانوا فيه يختلفون!

وأخيرا توخينا أن تكون اللغة بسيطة تخاطب القارئ المعاصر بُغية تقريب التاريخ إليه ليكون الكتاب سهلا في الأخذ والاستفادة.. ذا أسلوب قصصي ولكنه منضبط علميا.

ونأمل أن نكون نجحنا في تحقيق هذه الأهداف: الانضباط العلمي، الروح الإسلامية، الأسلوب القصصي.

***

رحلة الخلافة العباسية..

وكلمة «الخلافة» دليل على أن هذا الكتاب يناقش التاريخ السياسي، أي تاريخ الملوك والقصور والسياسات والمعارك، دون التاريخ الاقتصادي والثقافي والاجتماعي وما إلى ذلك.. وإن لم يمنع هذا من شذرات من كل هذا كلما كانت الحاجة قائمة.

والتاريخ السياسي هو الأسوأ بالنسبة إلى التواريخ، ذلك أنه تاريخ للصراعات والاضطرابات والثورات، وهو الأسوأ لما يظهر فيه من طبيعة المُلْك وطبيعة النفس البشرية.. فهو تاريخ يغض الطرف عن البناء والعمران والتقدم والتطور، وينحسر في أروقة القصور وساحات المعارك ومناطق النفوذ.. ولذا فالتاريخ السياسي لا يمثل الوجه الحقيقي الدقيق حتى للسلطان! فكثيرًا ما يبدو السلطان شخصية أخرى لدى قراءة سيرته في كتب التراجم والطبقات والرجال، وسنرى في هذا الكتاب كثيرًا من هذه النماذج التي لا يبدو الجانب الإنساني للسلطان فيها لدى مطالعة التاريخ السياسي؛ ولهذا فمن باب أولى فإن التاريخ السياسي لا يعبر أبدًا عن التاريخ

الحقيقي للأمم والشعوب التي عادة ما تكون أفضل بكثير من حكامها.

بينما التاريخ الحضاري دائما مشرق يتحدث عن الإنجازات والابتكارات والتقدم العلمي، عن العلماء والمكتبات وساحات التعليم والتدريس، عن النهضة والرخاء الاقتصادي، عن الموارد الكبيرة وعن ثراء الشعوب وسيولة الحركة التجارية..

إذا أردت أن تحب أي أمة من الأمم فطالع تاريخها الحضاري، وإذا أردت أن تكرهها فطالع تاريخها السياسي.. ولذا فالنظرة المنصفة للتاريخ لا بُدَّ أن تكون نظرة للتاريخ السياسي والحضاري معًا، وهذا هو ما يُغفله –عن عمد غالبا– أولئك الذين يشوهون التاريخ الإسلامي.

وقد كانت النية في بداية الشروع في هذا الكتاب أن يكون تاريخًا سياسيًّا وحضاريًّا للدولة العباسية إلَّا أن غزارة المادَّة وتنوُّعها جعلت الأمر مستحيلًا، إذ كنا سنحتاج إلى عشرة مجلدات بحدٍّ أدنى، وهذا غير ممكن في ظل الوقت المتاح وظروف التكلفة وطبيعة القارئ المعاصر ورؤية الأخ الكريم صاحب دار النشر.. ولعلَّ الله يُيَسِّر لنا إخراج التاريخ الحضاري للدولة العباسية، وبه سيتضح كيف أن هذه الأُمَّة قد كانت لمسة ساحرة طرأت على التاريخ الإنساني، مصداقًا لقول الله تعالى: ﴿كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ [آل عمران: ١١٠].

ولكن –ومع هذا– فإن التاريخ السياسي للمسلمين هو الأفضل من غيره، وهو يحتاج بعد كل هذه السنين إلى نظرة منصفة.. لا هي مغرقة في الأخلاقية فتنتفض لأي خلل وتشبعه نقدًا وتجريحًا، ولا هي بالتبريرية التي تقبل بكل ما وقع باعتبارنا ﴿خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾؛ فإن هذه الخيرية لا تعني العصمة، بل تعني الأفضلية النسبية المقارنة.. كما ينبغي ألا نسلك المنهج التبريري باعتبار ما يتعرَّض له الإسلام وفكره وتاريخه من هجوم في عصرنا الحالي.. بل المفترض بالذي يكتب في التاريخ أن يعلو على الزمن ليُقَدِّم المعلومة الصحيحة التي تحتاجها كل الأزمان وكل الظروف.

***

تبقى إشارة إلى هذا الكتاب..

فقد لاحظنا فراغ المكتبة الإسلامية من دراسة تحقق الشروط السابق ذكرها في فترة

الدولة العباسية، فغالب ما صدر فيها إما كتبه قوميون لم يتحرروا كثيرا من سيطرة المستشرقين، فإن تحرروا من هذا فإنهم وقعوا في التفسير القومي الذي أسس له المستشرقون باعتبار أن زمانهم ونشأتهم حفل بالأفكار القومية، أو كتبه إسلاميون فكان غالبه مختصرا أو تكرارا لما في كتب تراثية دون أن يأخذ قدره من التحليل والتقريب إلى القارئ المعاصر.

فعزمنا، مستعينين بالله، على الكتابة في هذا الموضوع، وقسمنا العمل فيما بيننا، فأخذ أحدنا (محمد إلهامي) الفترة العباسية منذ إنشاء الدعوة العباسية وحتى نهاية العصر البويهي (١٠٠ – ٤٤٥١هـ) فيما أخذ الآخر (محمد شعبان) الفترة التالية منذ دخول السلاجقة إلى بغداد وحتى سقوطها أمام الزحف المغولي (٤٤٥١ – ٦٥٦هـ)، فخرج الكتاب في ثلاثة مجلدات على هذا النحو:

(١) العباسيون الأقوياء: رحلة العباسيين منذ بداية الثورة حتى نهاية عصرهم الذهبي.

(٢) العباسيون الضعفاء: الخلافة العباسية تحت السيطرة العسكرية والبويهية.

(٣) آخر أيام العباسيين: الخلافة العباسية منذ سيطرة السلاجقة حتى سقوط بغداد.

***

نسأل الله أن نكون قد وُفِّقنا في تقديم مجهود ينفع الأمة في الدنيا وينفعنا في الآخرة إذا وقفنا بين يدي الله تبارك وتعالى.

فما كان من توفيق فمن الله وحده.. وما كان من خطأ أو سهو أو نسيان فمن أنفسنا، ولا نسأل القارئ الكريم إلا دعوة بظهر الغيب، وأن يصوبنا إذا رأى خللا أو خطأ، ونحن نستقبل التعليقات والتصويبات على هذه العناوين:

محمد إلهامي
moha.elhamy@gmail.com

محمد شعبان أيوب
shaheen.daraamy@gmail.com

أو على عناوين دار النشر..

والله الموفق والهادي إلى سواء السبيل

المؤلفان

سبتمبر ٢٠١٢

منهجنا في هذا الكتاب

سار العمل في هذا الكتاب على هذا النحو:

١- اقتصرنا في هذا الكتاب على التاريخ السياسي العباسي وحده، ومع الإيمان بأن التاريخ الحضاري والاقتصادي والاجتماعي مؤثِّر في السياسة ومتأثّر بها إلَّا أنه لا مناص من الاختيار ليتحقَّق الهدف المطلوب من الكتاب، وهي ضرورة بحثية تفرض نفسها على أي عمل كما يقول د. عبد الوهاب المسيري: «لا مناص من أن يتم الاختيار والإبقاء والاستبعاد والتهميش والتركيز حسب نموذج محدد، فالبديل هو أن أحاول أن أعطي القارئ كل التفاصيل، دون تفسير أو ترتيب، ولعلَّه قد يغرق فيها فلا يعرف أين بدأ وكيف ينتهي، وما معنى كل تفصيلة أو معلومة»[١].

فلهذا لم نتحدَّث عن المظاهر الحضارية أو الأحوال الاقتصادية أو حوادث الزلازل والقحط والجدب والمجاعات التي أصابت البلاد العباسية إلَّا فيما ندر، وحيث كان هذا ملحًّا ومرتبطًا ارتباطًا مباشرًا بالموضوع المطروح.

٢- اهتممنا بتتبُّع الرواية في مصادرها، ونقلها عن أول مصدر ذكرها ما استطعنا، وقد نردف بذكر المصدر الأول بعضا من المصادر التي نقلت عنه إذا كان ثمة فائدة مرجوَّة في هذا[٢]. وقد نكثر من المصادر في الحواشي إذا كانت القصة مفرَّقة في هذه المصادر، أو كان في تعدادها فائدة تدعيم صحتها أو بيان انتشارها وشهرتها أو غير ذلك مما يُحْتَاج إليه.

٣- الروايات التاريخية فيها ما هو ضعيف وما هو صحيح، ولقد اهتممنا على وجه

---

(١) د. عبد الوهاب المسيري: رحلتي الفكرية ص١٢، ١٣.

(٢) بعض هذه الأهداف قد لا يلحظها إلَّا الباحث، ولم نشأ أن نطيل بالإشارة إليها وبيانها؛ حتى لا نخرج بالكتاب عن هدفه في مخاطبة القارئ غير المتخصص.. ولنضرب مثالاً على سبيل الافتراض: حادثة وقعت في عام ١٥٠هـ، وفي مدينة الموصل، هذه الحادثة قد نجدها عند خليفة بن خياط (ت ٢٤٠ هـ) كأقدم مصدر أوردها، سيكون من المؤكد للحادثة ومما يزيدها مصداقية أن نأتي بها أيضًا من «تاريخ الموصل» للأزدي (ت ٣٣٤ هـ) باعتباره التاريخ المتخصص في هذه المنطقة.. وهكذا، ولذلك اجتهدنا في ترتيب المصادر في الحواشي حسب ما تراءى لنا من فوائد قد لا يدركها غير الباحث، ولم نُشِرْ إليها على سبيل التفصيل؛ لئلا يتحول الكتاب إلى بحث أكاديمي لا يناسب القارئ غير المتخصص.

الخصوص بالتواريخ التي كتبها محدِّثون ذوو بصر بالرجال وأحوالهم مثل الإمام الذهبي في كتبه، وكذلك البداية والنهاية للحافظ ابن كثير[1]، فإنهما ممَّنْ كان له في تاريخه نَفَسٌ نقدي للروايات الواردة. غير أن هذا لا يعني أن كل ما ورد فيهما صحيح، بل كان يعني أنه مقبول لديهما.. فلهذا نُورد الرواية من مصادرها الأولى مشفوعة بهذه المصادر التاريخية التي كتبها المحدِّثون.. ومن المؤرِّخين المُحَدِّثين -أيضًا- الإمام ابن عساكر والإمام الخطيب البغدادي والإمام ابن حجر، فلا تخلو موسوعاتهم من فوائد جمة في مجال تقييم الرجال والروايات والأسانيد.

٤- وأما منهج العرض التاريخي في هذا الكتاب فقد سار في كل عصر على وتيرة تناسبه:

أولاً: ففي عصر الثورة العباسية وعصر الخلفاء الأقوياء كان العرض يتبع الحالة التاريخية بغية توصيل أفضل صورة إلى القارئ، فإذا كانت الفترة مضطربة وفيها أحداث كثيرة تُؤَثِّر في بعضها فيكون عرضها عرضًا شاملًا يتابع كل العناصر المؤثِّرة؛ أمَّا إذا كانت الفترة هادئة ومستقرَّة فيكون عرضها بأسلوب العناصر، وسنضرب مثالًا يقرب الصورة:

في عصر أبي العباس السفاح والفترة الأولى من عهد أبي جعفر المنصور كان الوضع مضطربًا، فكنا نعرض للقارئ صورة تاريخية تتبع مسار الأحداث يومًا بيوم وشهرًا بشهر، وكيف يعاني الخليفة من ثورة هنا واضطراب هناك وتمرد هنالك، وهو في الوقت ذاته يبني الدولة ويجاهد الروم ونحو ذلك.

فأمَّا إذا انتقلنا إلى عهود كعهد المهدي أو الرشيد، وهي عهود ساد فيها الاستقرار والهدوء؛ فإن عرض التاريخ يومًا بيوم وشهرًا بشهر يُثير الملل لرتابة الأعمال، فيبدو كقراءة في معجم أو قاموس، ففضلنا في هذه الحالة أن نعرض التاريخ كموضوعات: العلاقات الخارجية -المشكلات الداخلية- الرخاء الاقتصادي- النهضة العلمية... إلخ، ونستعرض

(١) يقول محمد بن طاهر البرزنجي: إن الإمام ابن حجر يؤخذ نقده التأريخي من خلال روايات مناقب الصحابة وبعض الأحاديث النادرة في صحيح البخاري حول أحداث الفتنة في عهد الخلفاء الراشدين ومن بعدهم. وأما الذهبي فقد استخدم النقد على نطاق لا بأس به في كتابيه العظيمين «تأريخ الإسلام» و«سير أعلام النبلاء». ولكن الحافظ ابن كثير استعمل النقد أكثر منهما بكثير، ولعلَّ كتابه القيم «البداية والنهاية» هو المحاولة الأولى لإعادة كتابة التاريخ الإسلامي برمته، وأثناء دراستنا لروايات الطبري ومقارنتها بما ذكره ابن كثير من روايات الطبري وغيره وجدنا الحافظ ابن كثير ناقدًا بصيرًا... لم يكثر قبله أحد في النقد كما أكثر هو من استخدامه، وتخمينًا لا حصرًا نقول: إنه نقد ما يقرب ٢٠٪ من أصل الروايات التاريخية ورجّح وصحّح. انظر: محمد بن طاهر البرزنجي: صحيح وضعيف تاريخ الطبري ١/ ٤١، ٤٢.

تحت كل عنصر ما جرى فيه على طول عهد الخليفة؛ لكي تبدو الصورة أكثر وضوحًا لدى القارئ المعاصر.

وسيبدو هذا المنهج أوضح ما يكون في عصر المأمون حيث كانت بداية عهده مضطربة فتتبَّعناها بالتأريخ اليومي والشهري؛ حتى إذا استقرَّ أمره تتبَّعنا باقي عهده تحت العناصر المذكورة.

ثانيًا: وأما في عصر سيطرة الأتراك فقد ظلت حالة السرد التاريخي على ذات المنهج السابق، ولم نتابع حالة تفكك الدول المستقلة في المشرق والمغرب الإسلامي وتطور الأحداث فيها، فهذا مما لا يحتمله التأريخ للخلافة العباسية، إلا أن يكون الأمر مؤثرا في التاريخ العباسي كما في الدول المستقلة في المشرق الإسلامي في فترة المعتمد والمعتضد وما بعدهما حتى النهاية، إذ أصبح المشرق موطنا لحركات تمرد واسعة هددت الخلافة ذاتها أحيانا كحركة يعقوب بن الليث الصفار ومرداويج بن زيار الديلمي، ثم انتهى عصر سيطرة الترك على يد البويهيين الذين احتلوا بغداد بعد أن نشأوا وتوسعوا في الشرق، وكذلك إن أثرت أحداث في المغرب على التاريخ العباسي كما في مرحلة الدولة الطولونية والعلاقة بينها وبين الخلافة العباسية، كذلك كما في نشأة الدولة العبيدية (الفاطمية) في الشمال الإفريقي ثم استقرارها في مصر.

بقدر ما أثرت الأحداث في حال الخلافة العباسية بقدر ما اهتممنا بتتبع تطورها وتوضيحها لكي يكون القارئ على معرفة بخريطة الأحداث التي تؤثر في مجرى التاريخ.

ثالثًا: وفي شأن الدول التي استقلت عن الخلافة، فقد أرَّخنا لها بحسب الحال، فأما الدول التي كانت بعيدة فاستقلت ولم تشتبك مع الخلافة العباسية في معارك أو سياسات فقد ذكرناها في آخر عصر الخليفة الذي بدأ استقلالها في عهده، وذكرنا عنها نبذة للتعريف بها يختصر كل تاريخها كما في دولة بني أمية في الأندلس ودولة بني مدرار في المغرب أو السامانيين فيما وراء النهر، وأما الدول التي استقلت وجرى بينها وبين الخلافة مناوشات فقد أخذنا في تأريخها جنبا إلى جنب مع تاريخ الخلافة العباسية، وذكرنا أحوال العلاقة بينها وبين الدولة العباسية حربا أو هدنة أو سلما، وتقلبها بين هذا وذاك.

رابعًا: وفي عصر سيطرة البويهيين، سنجد أن دائرة الجغرافيا قد انحسرت جدا حتى صارت منطقة العراق في ظل الاستقلال الفعلي للدول المحلية بمناطق المشرق والمغرب، كما

أن الخلفاء لم يعد لهم دور في سير الأحداث بل كانوا على هامشها.. لذا فضلنا أن يكون التقسيم الزمني كما هو بعهود الخلفاء كما درج عليه روادنا المؤرخون، ثم يكون السلطان البويهي من عناصر البحث، ويكون البحث مقصورًا على العراق وحده.

خامسًا: في آخر أيام العباسيين ورث السلاجقة الفاتحون ما كان للبويهيين من سلطان على العراق وفارس، وقليلًا ما اختلفوا عن سياسة البويهيين اللهم إلا احترامهم «البروتوكولي» للخليفة، فضلا عن نشوء ظاهرة الزواج السياسي بين الجانبين، ومن ثم امتثلنا منهج تعاملنا السابق مع البويهيين؛ من حيث التقسيم الزمني بعهود الخلفاء مع الإفراد بعنصر رأسي خاص للسلاجقة في طيلة هذا العصر اعتمادًا على مصادر تاريخية كانت لصيقة بالسلاجقة كتاريخ البنداري الأصفهاني والحسيني في القرنين السادس والسابع الهجريين.

سادسًا: بعد القضاء على السلاجقة في زمن الخليفة القوي الناصر برز العباسيون في موقف الاستقلال المؤقت هذه المرة، وهو ما استدعى ظهور الإصلاحات الداخلية وبروز الأوضاع السياسية والاجتماعية للعراق بصورة جديدة بعد ما يقرب من قرون ثلاثة، فبدأنا نتناول نتفًا عن أحوال بغداد الاجتماعية، فضلا عن جنوحنا لدراسة التاريخ العباسي في هذه الحقبة في صورة موضوعات منعًا للسآمة والملل، وكان اعتمادنا في ذلك على مصادر عاصرت هذه الأحداث كتاريخ المنتظم لابن الجوزي والكامل لابن الأثير.

سابعًا: لم تلبث الأخطار أن بدأت تطل من جديد على العباسيين خاصة في ظهور الخوارزميين ثم المغول في الشرق، الأمر الذي استدعى إفراد الحديث عن هذه المستجدات معتمدين في ذلك على المصادر التاريخية لصيقة الصلة بهذه الدول كتاريخ النسوي الذي يؤرخ لسيرة خوارزمشاه وابنه منكوبرتي وجامع التواريخ لرشيد الدين الهمذاني وغيرها بالطبع.

ثامنًا: أفردنا الحديث في العصر العباسي المتأخر للدول المستقلة التي كانت لها صلات مع الخلافة العباسية مثل سلاجقة الروم والشام والأتابكيات والدولة الزنكية والأيوبية وبدايات الدولة المملوكية، وهو حديث موجز سريع كان لابد منه لكشف الصورة العامة لشبكة العلاقات العامة للخلافة العباسية آنئذٍ؛ وراعينا في ذلك الاتكاء على المصادر التاريخية التي تؤرخ لهذه الدولة وتلك، وكذلك المصادر البلدانية. وكذلك طبيعة العلاقات العباسية الفاطمية وكيف أن كتابًا مثل «اتعاظ الحنفا بأخبار الأئمة الفاطميين الخلفا» لتقي الدين

المقريزي (ت٨٤٥هـ) يعد مصدرًا مهمًا لاستقاء مادة قد لا توجد في مصادر التاريخ العباسي حول هذه العلاقات.

تاسعًا: واجهتنا مشكلة ندرة المصادر الأصلية في العصر العباسي الأخير وخاصة السنوات الستين الأخيرة قبل سقوط الخلافة على يد المغول؛ فكنا نرجع إلى ما تيسّر لنا من مخطوطات تناولت تلك الحقبة ولـمَّا تُحقَّق بعد، مع ما تحصلنا عليه من مصادر أخرى، فضلا عن بعض المصادر والمراجع الفارسية والغربية المعرّبة وهي على قدر كبير من الأهمية؛ فضلا عن الاسترشاد بروايات المؤرخين النصارى والشيعة الذين عاصروا هذه الأحداث ومقارنتها بروايات المؤرخين السنة في القضايا المتشابكة بينهم مثل دور ابن العلقمي ونصير الدين الطوسي ونصارى بغداد في إسقاط الخلافة العباسية وغيرها.

وفي الختام: نسأل الله تعالى أن يرزقنا الإخلاص في القول والعمل، وأن يجعل كل أعمالنا صالحة، ولوجهه الكريم خالصة، وألا يجعل فيها ندا ولا شريكا، وأن يكتب لها البقاء والقبول.. إنه ولي ذلك والقادر عليه.

المؤلفان

تمهيد
موجز الدولة الإسلامية قبل العباسيين

الدولة العباسية ليست إلَّا حلقة في سلسلة التاريخ الإسلامي، ولئن كان هذا الكتاب مخصَّصًا للحديث عن دولة العباسيين؛ فإن كثيرًا من الأمور لا يمكن فهمها على الوجه الصحيح بغير معرفة ما كان قبلها منذ أن أنشأ النبي محمد ﷺ دولة الإسلام في العام الأول من الهجرة في المدينة المنورة، وحتى سقوط الدولة الأموية، مرورًا بعهد الخلافة الراشدة.

إن العهد النبوي مع عهد الخلافة الراشدة هو العصر الذهبي للأُمَّة المسلمة كلها، وهو الأفق الذي ترنو نحوه الأُمَّة لاستعادته ما بقيت، وهو غرض المصلحين في كل أزمنتها وأماكنها، كلهم يُريد أن يرتقي بالمسلمين في عصره ومصره ليكونوا أقرب إلى جيل الصحابة والتابعين، وأن يكون الحاكم أقرب إلى أبي بكر وعمر وعثمان وعلي (رضي الله عنهم جميعًا).

ثم كانت الدولة الأموية عهدًا آخر شهد انحرافات واضحة عن العهد الراشدي؛ لكنه كان أفضل من كل ما تلاه من عصور وعهود، وعلى الرغم من أن الدولة العباسية قامت في الأصل لإصلاح الانحرافات الكائنة في العهد الأموي؛ فإن التاريخ جرى بما جعلها أقلَّ شأنًا وإنجازًا من الدولة الأموية، وأكثر انحرافًا -أيضًا- عنها وعن عهد الخلافة الراشدة، وإن كان للجميع ما له وما عليه؛ مآثره وأمجاده ومفاخره، وانحرافاته وسقطاته ومثالبه.

ومن ثَمَّ آثرنا أن نبدأ موجزًا سريعًا لاستعراض التاريخ الإسلامي قبل الدولة العباسية؛ ليكون تمهيدًا للدخول إلى الرحلة في عصر الخلافة العباسية.

دولـــــة النبي ﷺ

انحطَّت الإنسانية ووصلت إلى دركاتها الأخيرة؛ حتى لم يبقَ من أهل الخير في هذه الأرض جميعًا إلَّا شراذم قليلة؛ حضارات الشرق والغرب تعيش على اضطهاد الإنسان وتقسيم الناس إلى سادة وعبيد، تزخر بالمظالم والكوارث، تشيع فيها فواحش الأخلاق وفساد الأفكار؛ الأصنام تصير آلهة معبودة، ليس في جزيرة العرب وحدها بل في العالم كله، وللأصنام قوم نصبوا أنفسهم كهنة وسدنة يأكلون من خلالها أموال الناس بالباطل، ويُرَسِّخُون بها للطغاة الحاكمين؛ فالطاغية في العالم حينئذٍ إمَّا إله كامل، وإمَّا نصف إله، وإمَّا أنه وكيل الإله على هذه الأرض، وبهذه الألقاب يفعل ما يشاء ويحكم ما يُريد، ولا رادَّ لحكمه، ولا ينتهي طمعه لا في إذلال قومه وإخضاعهم، ولا في التسلُّط على غيره من البلاد والممالك؛ يبغي بذلك زيادة أمواله والإكثار من عبيده والخاضعين لحكمه.

ولم يبقَ من نور الوحي في العهود السابقة إلَّا ذبالة أخيرة ضعيفة لا تكاد تقوى على الحياة؛ فضلًا عن تنوير العالم وتغييره، لقد انحرف أهل الكتاب أنفسهم بعد أن حرَّفُوا كتبهم وبدَّلُوها إرضاءً لأهوائهم؛ حتى لم يبقَ منهم إلَّا مَنْ ينتظر زمان النبي الأخير، بعد أن أظلمت الدنيا ولم يَعُدْ ثمة أمل في إصلاحها.

فبعث الله نبيه الخاتم ورسوله الأكرم محمدًا في مكة، التي هي حاضرة الجزيرة العربية، فقام يدعو الناس إلى دين الله تبارك وتعالى، فواجهه القوم الذين تتضرَّر مصالحهم بدعوة تحرُّر الإنسان، فكيف يحكم الأسياد عبيدًا إن جاء دين يُسَوِّي بينهم، فلا يجعل أحدًا فوق أحد؟! وماذا يعمل كهنة الأصنام والأزلام إذا كان المعبود سميعًا قريبًا مجيبًا لا يحتاج إلى وسطاء؟! وماذا يفعل الذين يحبُّون أن تشيع الشهوات إذا جاء دين يُتَمِّمُ مكارم الأخلاق؟!

واجه النبي ﷺ حربًا ضروسًا هائلة في مكة فقد فيها من الأرواح والأموال شيئًا كثيرًا؛ حتى أيقن أنها مغلقة أمام حركته الإصلاحية، ففكَّر خارج مكة في الطائف، وفي غيرها من قبائل العرب التي كان يطوف على شيوخها وقادتها، فعثر في نهاية المطاف على رجال من يثرب